

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿حَبَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أى: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم. ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس عما هم فيه من الضلال والعمى إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية [الحديد: ٩]. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى: هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ أى: العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق فى خبره.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهى اتباع الرسل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عاتلة، وهى مستقيمة فى نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، وقوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: بعد البيان وإقامة الحججة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدى من يشاء إلى الحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى ما شاء كان، وما لم

يشأ لم يكن ﴿العَكِيم﴾ في أفعاله، فيفضل من يستحق الإضلال، ويهدى من هو أهل لذلك. وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمداً بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة^(١). وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاحزاب: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: وهي التسع الآيات ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإجباره إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقناة، وغير واحد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهيّن، لعبرة لكل ﴿صَبَّارٍ﴾ أي: في الضراء ﴿شَكُورٍ﴾ أي: في السراء، كما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (٢).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُمُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَجْبُكُمْ لَمِنَ شَاكِرْتُمْ لَا زَيْدَ لَكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حديث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فانقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٣/٥٢١).

(٢) مسلم (٢٩٩٩/٦٤).

عظيم ﴿ أى : نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك ، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها . وقيل : وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بلاء ﴾ أى : اختبار عظيم . ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا ، والله أعلم ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لِنُظِّمَ لَهُمْ الْجُجُونَ ﴾ [الاعراف : ١٦٨] .

وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أى : آذنتكم وأعلمكم بوعدته لكم . ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم وألى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْيَوْمَ الْقِيَامَةَ ﴾ [الاعراف : ١٦٧] .
وقوله : ﴿ لَمَّا شَكَرْتُمْ لِأَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ أى : لئن شكرتم نعمتى عليكم لأزيدنكم منها ﴿ وَلَمَّا كَفَرْتُمْ ﴾ أى : كفرتم النعم واسترتموها وجحدتموها ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وذلك بسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها . وقد جاء فى الحديث : إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى : هو غنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ، وإن كفره من كفره ، كما قال : ﴿ إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ الآية [الزمر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَحْيَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : ٦] . وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه ، عز وجل ، أنه قال : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسأله ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، إلا كما ينقص الخيط إذا دخل البحر (٢) . فسبحانه وتعالى الغنى الحميد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾

هذا خبر من الله تعالى لهذه الأمة ؛ خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ، مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات ، أى : بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات . وقال عبد الله [بن مسعود] فى قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ : كذب النسابون . وقال عروة بن الزبير : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان .

وقوله : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ : اختلف المفسرون فى معناه ، فقيل : معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم ، لما دعواهم إلى الله ، عز وجل . وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم . وقال مجاهد ، ومحمد بن كعب ، وقتادة : معناه : أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم . قلت : ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام : ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ فكان هذا تفسير لمعنى رد أيديهم فى أفواههم . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم وقالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا ﴾

إليه مُرِيبٌ ﴿١٠﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكاً قويا.

﴿١١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَظْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ عِلْفٌ تَوَكَّلْ أَلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَنْصِيرَكَ عَلَىٰ مَاءٍ أَذْيَمُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أهمهم لما واجههم بالشك فيما جاؤهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أفي الله شك﴾: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاح إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فأطير السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم ليظفر لكم من ذنوبكم، أى: فى الدار الآخرة ﴿ويؤخركم إلى أجلٍ مُّسمى﴾: أى: فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُصْحَبْكُمْ صَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾: الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: أى: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة ﴿فأتونا بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: أى: خارق تقترحه عليكم. قالت لهم رسلهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أى: صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿ولكن الله يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: أى: بالرسالة والنبوة ﴿وما كان لنا أن نأتىكم بسُلْطَانٍ﴾: على وفق ما سألتم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أى: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا فى ذلك ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾: أى: فى جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾: أى: وما يمننا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ولتصبرن على ما آذيتنونا﴾: أى: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾.

﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إرْسُلْهُم لِنُخْرِجَنَّكَم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لنعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُلَاقِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اللَّهِ لَأَقْرَبَنَّكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَلَمَّا لَمَسُوا نَارًا لَمَحُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَعَبِيدُهُمْ وَنَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٧﴾ مِّنْ وَرَائِهِم جَهَنَّمُ وَتَشَقَّىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٨﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾: الآية [الاعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾: الآية [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش: ﴿وإن كادوا ليسفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ

خير المأكرين ﴿ [الانفال: ٣٠] .

وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعاوناً وجندا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقبه، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم آلاف أعدائه منهم، وسائر الارض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّتَنَّكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِذْنِ رَبِّنَا أَن لَّا يُرْسِلْنَا رَسُولًا إِلَّا نَحْنُ مُنْزَرِينَ. وَإِن جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالَمُونَ﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٣] ، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الانبيا: ١٠٥] ، وقال موسى لقومه استجبوا بالله وأصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴿ [الاعراف: ١٢٨] ، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا رَبِّمُ كَلِمَتِ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَصْرِفُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٧] .

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ﴾ أي: وعيد هذا لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، وخشى من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [التارعات: ٣٧ - ٤١] ، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦] .

وقوله: ﴿وَاسْتَفْجُوا﴾ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقناة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانفال: ٣٢] ، ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفجوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْجُوا فَعَدَّ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الانفال: ١٩] ، والله أعلم. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَقْبَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ. مَتَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ. الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ إِلَيْهَا آخِرَ فَالْقِيَاءِ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦] ، وفي الحديث: «إنه يؤتى بهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث (١).

وقوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وغشياً إلى يوم التناد. ﴿وَيَسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنق، قال مجاهد: الصديد: من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفي رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وقوله: ﴿يَنْتَرَعُهُ﴾ أي: يتفحصه ويتكرهه، أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١] . ﴿وَلَا يَكَادُ يُسْمِعُهُ﴾ أي: يزدرد له لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطيع ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي:

يالم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. وقال ابن عباس: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال: أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت، لأن الله تعالى قال: ﴿ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَمِوتُوا وَلَا يَخَفُوا ﴾ [فاطر: ٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمِنْ زُرَّتِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أى: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيَاطِينِ . إِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم، وتارة فى شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم، عياداً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَهَنَّمَ أَنْ ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَثَمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاغْلُوه إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُتِبَ بِهِ تَعْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، وقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظُلْمٍ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا يَارِدُ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرَابًا . جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنْ مَهَادٍ . هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٍ وَعَسَاقٍ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصىه إلا الله، عز وجل، جزاءً وفاقاً ﴿ وَمَا رُبَّ بَطْلَانٍ لِّعَبِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ وَذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعمدوها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أى: ذى ربح عاصفة قوية، فلا يقدرّون على شيء من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا، إلا كما يقدرّون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأً مُنْثَرًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَنُفِضْهُ كَمَثَلِ صَفْرَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال فى هذه الآية: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أى: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه .

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَلْحَقُ بِإِنشَاءِ يَدَيْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والارض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب، وهذه الارض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَخْلُقْ لَهُمْ بَقَادِرَ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ حَصِيمٌ مَبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسَبْحَانَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى: بعظيم ولامتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بأخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِنٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا﴾ أى: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أى: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شيء يستر احدا. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الاتباع لقادتهم ومسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: مهما أمرتمونا اتهمنا وفعلمنا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: فهل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحققت كلمة العذاب على الكافرين ﴿سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِنٍ﴾ أى: ليس لنا خلاص عما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكانهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نبكى وتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرا لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِنٍ﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّبُوا نَارًا فِي النَّارِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا قَحَطْنَاهُ مِن نَّارٍ قَالُوا اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ لِحَبْلِهَا إِذَا تَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمُ اللَّهُ مِنَّا وَأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا قَاتِبِهِمْ عَذَابًا حَقًّا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ حِجْفٍ وَكَيْفٍ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الاعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِهِمْ حِجْفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الاحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وأما تخصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتَرَفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ يُرْجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَقْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا حَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْبَبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يخبر تعالى عما خطب به إبليس أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حيثن خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبتهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ أي: على السنة رسله، وععدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخيراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿بِعْدْتُمْ وَمَتَّبِعْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بِنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بِنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل. وقال ابن جرير: يقول: إني وجدت أن أكون شريكاً لله عز وجل. وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّا

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار. وقال محمد بن كعب القرظى: لما قال أهل النار: ﴿سِوَاهُ عَلَيْنَا أَجْرِعْنَا أَمْ صَبْرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقاتله مقتوا أنفسهم، فتودوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مُفْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الحزى والنكآل، وإن خطيهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكين أبدا لا يحولون ولا يزولون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهُمَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا وَسَلَامًا عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجْنَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٣﴾﴾

قال ابن عباس: قوله: «ومثل كلمة طيبة»: شهادة أن لا إله إلا الله، «كشجرة طيبة» وهو المؤمن «أصلها ثابت» يقول: لا إله إلا الله فى قلب المؤمن «وفرعها فى السماء» يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جببير، وحكيمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت، وصباح ومساء. وعن ابن مسعود قال: هى النخلة. وروى البخارى عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبرونى عن شجرة تُشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا] تؤتى أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع فى نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلن، فلما لم يقولوا شيئا، قال رسول الله ﷺ: «هى النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلن أو أقول شيئا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا^(١). وروى أحمد عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجمار. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هى النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكت]، فقال رسول الله ﷺ: «هى النخلة» أخرجناه^(٢). وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس فى شجر البوادي، ووقع فى قلبى أنها

(١) البخارى (٤٦٩٨)، وما بين المعرفتين ليس فى المطبوعة ولا المخطوطة، وأثبتناه من البخارى.

(٢) المسند (١٢/٢)، والبخارى (٧٢)، ومسلم (٦٣/٢٨١١)، وما بين المعرفتين ليس فى المطبوعة ولا المخطوطة، وأثبتناه من البخارى والمسند.

النخلة ، فاستحييت ، حتى قال رسول الله ﷺ : « هي النخلة » . أخرجه أيضاً (١) .

وقوله: ﴿ تَوْبِي أكلها كُلِّ جَبِين ﴾ قيل: غُدوة وَعَشِيَا . وقيل: كل شهر . وقيل: كل شهرين . وقيل: كل ستة أشهر . وقيل: كل سبعة أشهر . وقيل: كل سنة . والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة ، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح أثناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أى: كاملاً حسناً كثيراً طيباً ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَظَلَّ كَلِمَةً خَبِيَةً كَشَجَرَةٍ خَبِيَةٍ ﴾: هذا مثل كفر الكافر ، لا أصل له ولا ثبات ، وشبهه بشجرة الحنظل ﴿ اجْتَنَّتْ ﴾ أى: استوصلت ﴿ مِنْ فَرْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أى: لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يُتَقَبَّلُ منه شيء .

﴿ يَشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ﴿٢٧﴾

روى البخارى عن البراء بن عارب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يَشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم (٢) . وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدها فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة». قال نبي الله ﷺ: «فيراها جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملا عليه خضيراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم وأخرجه النسائي (٣) .

وروى الإمام أحمد عن أبي الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتان القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهاز، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبداه . فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنحاك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراها كليهما . فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلى . فيقال له: اسكن . وأما المنافق فيقعده إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس . فيقال له: لا دريتَ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار». قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه». إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه (٤) .

(١) البخارى (١٣١) ، ومسلم (٦٣/٢٨١١) .

(٢) البخارى (٤٦٩٩) ، ومسلم (٧٣/٢٨٧١) ، وأبو داود (٤٧٥٠) ، والترمذى (٣١٢٠) .

(٣) مسلم (٧٠/٢٨٧٠) ، والنسائي في سننه (٢٠٥٠) .

(٤) المسند (٣٤٦/٣) .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الميت تخمضه الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة، وأبشرى بحميم وعَسَاق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء. فيرسل من السماء، ثم يصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول. ورواه النسائي وابن ماجه^(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدِكَ تَعْمُرُنِيهِ، فَيُطَلَّقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من شئنا وذكر مقتا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردَّ رسول الله ﷺ رِبْطَةً كانت عليه على أنفه، هكذا^(٢).

وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجى إلى روح الله. فتخرج كاطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قِبَل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرْحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ بَغَائِبِهِمْ، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم! فيقول: قد مات، أما اتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجى إلى غضب الله، فتخرج كائن ريح جيفة، فَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ^(٣)». وقد روى أيضا عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: «يُسْأَلُ: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قبضت نفسه، وذُهِبَ بِهَا إِلَى بَابِ الْأَرْضِ تَقُولُ خِزْنَةُ الْأَرْضِ: ما وجدنا ريحا أنتن من هذه. فَيُلْغُ بِهَا الْأَرْضُ السُّفْلَى^(٤)».

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت - أو

(١) المسند (٣٦٤/٢)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وفي الزوائد: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٢) مسلم (٧٥/٢٨٧٢). (٣) ابن حبان (٧٣٣ موارد).

(٤) ابن حبان (٧٣١ موارد). ورواه الحاكم في المستدرک (٣٥١/١) وصححه.

قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: منكر، والآخر: نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول، هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُفَسِّحُ له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين. ويُنَوِّرُ له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التثني عليه. فتلتم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. ثم قال الترمذي: هنا حديث حسن غريب (١).

وقال ابن عباس في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حَضَرَه الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشَوْا مع جنازته، ثم صَلَّوْا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسَّعُ له في قبره مد بصره. وأما الكافر فتنزّل عليه الملائكة، فيبسطون أيديهم - والبسط: هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذي بُعثَ إليكم؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين. وقال عبد الرزاق عن ابن طاوس، عن أبيه: ﴿بُيِّتَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾: المسألة في القبر. وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيبشيتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ في القبر. وكذا روى عن غير واحد من السلف.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٤﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنُبِّئُونَ أَلْقَارًا ﴿٢٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴿٢٦﴾ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾

قال البخاري: قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا ﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴿ إبراهيم: ٢٤ ﴾، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، البوار: الهلاك، بار بيور بوراً، و ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٢]: هالكين. عن ابن عباس: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا ﴾ قال: هم كفار أهل مكة (٢٧). وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جيلة بن الإيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى: جعلوا له شركاء عبدهم معه، ودَعَوْا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مَهْدِدًا لهم ومتوعداً لهم هلى لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿ فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى: مرجعكم وموتلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿ نَسْتَهْتِمُ قَلِيلًا نَّمْ نَضْرُوهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ تَتَعَاطَى فِي الدُّنْيَا

فَمَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ (يونس: ٧٠).

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَرَبُّقُوا مِمَّا رَزَقْتَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلاَلٌ ﴾ ﴿٧١﴾

يقول تعالى أمراً عباده بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخسوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإففاق مما رزق في السر، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك خلاص أنفسهم ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿ولا خلال﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مخالفة خليل، فيصنع عن استوجب العقوبة، عن العقاب لمخالته، بل هنالك العدل والقسط. وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فيقطع عنه. قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفق أحداً ببيع ولا فدية، ولو اقتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا يَوْمَ لَا تُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال تعالى: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلاَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٧٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٧٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجرى عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لرحلتها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، جلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع. ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي: يسيران لا يفتران ليلا ولا نهارا ﴿لا الشمس ينبيها لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠]، ﴿بغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الاعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يولج الليل

في النهار ويُولجُ النهار في الليل وسَخَرَ الشمسُ والقمرُ كُلُّ يَجْري إلى أجلٍ مُّسَمًّى [وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] (١) ﴿ لقمان: ٢٩ ﴾، وقوله: ﴿ يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٥]

وقوله: ﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾: يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقوله: ﴿ وَإِنْ تَعْلَمُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين. وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكفئ ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا» (٢). وقال الشافعي، رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة تُوجب على مؤدى ماضى نعمه بأدائها، نعمة حادثة توجب عليه شكره بها. وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة متى لها لغةٌ تُنسى عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكركى إذ شكرتُ به إليك أبلغ في الإحسان والمنين

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ رَبِّ إِنِّي نَزَّلْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركى العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه أهله، تبرأ من عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [المنكوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾، فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولا. وقال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾: ينبى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلانق من الناس وأنه برىء ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿ إِنْ تَعْبُدُونَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تمويه ووقع ذلك.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿﴾

(١) في المطبوعة والمخطوطة: «ألا هو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه.

(٢) البخارى (٥٤٥٨).

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بئانه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ . وقوله: ﴿رَبَّنَا لَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى: إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَاجْمَلْ أُمَّتَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس: لو قال: «أُمَّتَهُ النَّاسِ» لاذحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَادِغْرِ ذِي زُرْعٍ﴾ فاجمل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتَ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [الفصل: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى: أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى: إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد. ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى: فيما سألتك فيه كله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: «ولوالدى» على الأفراد، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله، عز وجل، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يوم تحاسب عبادك فتجزئهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمِ تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مَهْطِعِينَ مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾

يقول تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يا محمد ﴿غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: لا تحسبه إذا انظرهم واجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عدا: ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمِ تَشْخُصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أى: من شدة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْتَمِينَ﴾ أى: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْتَمِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الآية [القم: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَحَوَّنُ الدَّاعِي لَا عِوَجَ لَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَتَّ الزُّجُوجُ لِلنَّعِيِّ﴾ [طه: ١٩٨ - ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ الآية [المعارج: ٤٣]. ﴿مُنْعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: رافعى رؤوسهم ﴿يَوْمَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أى: أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطفرون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة، لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقْبَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾ أى: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَاءً﴾: خراب لا تعى شيئاً. ولشدة ما أخبر الله تعالى عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَنْتُمْ مِمَّن قَبْلَ مَا لَكُمْ مِنَ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُخْرَجُونَ﴾ [الزمر: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُرْجَمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَا نُرَدُّوْا وَلَا نَكُذِّبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأْتُمُ مَا كَانُوا يَحْفَتُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَأَنْهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الانعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُدْرِكُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَنْتُمْ مِمَّن قَبْلَ مَا لَكُمْ مِنَ زَوَالٍ﴾ أى: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك. قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ زَوَالٍ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]. ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أى: قد رأيتم وبلغتم ما أحللتنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقفنا بهم مزدجر لكم ﴿حِكْمَةً بِاللُّغَةِ﴾ فما تغى النَّذِيرُ [القم: ٥]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكْرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصرى، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد ويال ذلك على

انفسهم. قلت: وشبه هذا إذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]. والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا. أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٩، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقناة.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ. رُسُلُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ﴿

يقول تعالى مقرأ لوعده ومؤكداً: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد. ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء. أرادته، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها معلّم لاحد»^(١). وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط». رواه مسلم والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى الإمام مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ ، فجاءه حبر من أجمار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعةً كاد يُصرَعُ منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: لا اتقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتكَ؟» فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين». قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتكَ؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله - تعالى - وإذا علا مني المرأة مني الرجل أننا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبى. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، وما لى علم بشيء منه، حتى أتاني الله به»^(٢).

(١) المسند (٦/٣٥)، ومسلم (٢٩/٢٧٩١)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجه (٤٢٧٩).

(٢) مسلم (٣٤ / ٣١٥).

وفى حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فيسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ثم يزرع الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة»^(١).

وقوله: ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ ﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أي: الذي قهر كل شيء وغلبه، وفانت له الرقاب، وخضعت له الالباب.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَفْشَىٰ وَجُوهُهُمْ أُنثَارُ الْجَحِيمِ يُلِجِرُونَ اللَّهُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ﴾، وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجمروا بكفرهم وفسادهم ﴿ مُّقْرَنِينَ ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، كل صف إلى صف، كما قال تعالى: ﴿ احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا أُنْفِرْنَا مِنْ مَّكَانٍ خَيْبًا مُّقْرَنِينَ دُعُوا هُنَالِكَ تِيْرًا ﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلُّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]. والاصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة.

وقوله: ﴿ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي تطلق به الإبل، وهو الصق شيء بالنار. وكان ابن عباس يقول: القَطْرَان هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرٍ أَنْ» أي: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد ابن جبيرة، والحسن، وقَتَادَةَ.

وقوله: ﴿ وَتَفْشَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ ﴾، كقوله: ﴿ تَفْشَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِهْنِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. وروى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركون: الفخر بالأحساب، والظن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

وقوله: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم: ٣١]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾: يحتمل أن يكون كقولته تعالى: ﴿ اقْرَبْ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الانبيا: ١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النَّجَار؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقولته تعالى: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا كَفَّسٍ وَاحِدَةً ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾: إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ لِيَسْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكَرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٥٢﴾

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام.

(٢) المسند (٣٢٤/٥) ومسلم (٩٣٤ / ٢٩).

سيقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الانعام: ١٩] أى: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال فى أول السورة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُنزَّلُ عَلَى رَسُولِهِمْ﴾. ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أى: ليتعظوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَكَّرُوا أَتَابًا﴾ أى: ذور العقول.